فقال له معاوية أين دارك قال بالبصرة وكم اتساعها قال فرسخان فى فرسخين قال لا تقل دارى بالبصرة ولكن قل البصرة فى دارى وذكر أن رجلا دخل بابن معه فجلسا على سماط معاوية فجعل ولده يأكل أكلا ذريعا فجعل معاوية يلاحظه وجعل أبوه يريد ان ينهاه عن ذلك فلا يفطن فلما خرجا لامه أبوه وقطعه عن الدخول فقال له معاوية أين ابنك التلقامة قال اشتكى قال قد علمت أن أكله سيورثه داء قال ونظر معاوية إلى رجل وقف بين يديه يخاطبه وعليه عباءة فجعل يزدريه فقال يا أمير المؤمنين إنك لا تخاطب العباءة إنما يخاطبك من بها وقال معاوية أفضل الناس من إذا أعطى شكر وإذا ابتلى صبر وإذا غضب كظم وإذا قد غفر وإذا وعد أنجز وإذا أساء استغفر وكتب رجل من أهل المدينة إلى معاوية بن أبى سفيان رضى ا عنه إذا الرجال ولدت أولادها واضطربت من كبر أعضادها وجعلت أسقامها تعتادها فهى زروع قددنا حصادها فقال معاوية نعى إلى نفسى] .

وقال ابن أبى الدنيا حدثنى هارون بن سفيان عن عبد ا السهمى حدثنى ثمامة بن كلثوم أن آخر خطبة خطبها معاوية أن قال أيها الناس إن من زرع قد استحصد وإنى قد وليتكم ولن يليكم أحد بعدى خير منى وإنما يليكم من هو شر منى كما كان من وليكم قبلى خيرا منى ويا يزيد إذا دنا أجلى فول غسلى رجلا لبيبا فان اللبيب من ا بمكان فلينعم الغسل وليجهر بالتكبير ثم اعمد إلى منديل فى الخزانة فيه ثوب من ثياب رسول ا ص وقراضة من شعره واظفاره فاستودع القراضة أنفى وفمى واذنى وعينى واجعل ذلك الثوب مما يلى جلدى دون لفافى ويا يزيد احفظ وصية ا فى الوالدين فاذا أدرجتمونى فى جريدتى ووضعتمونى فى حفرتى فخلوا معاوية وارحم الراحمين وقال بعضهم لما احتضر معاوية جعل يقول ... لعمرى لقد عمرت فى الدهر برهة ... ودانت لى الدنيا بوقع البواتر ... واعطيت حمر المال والحكم والنهى ... ولى سلمت كل الملوك الجبابر ... فأضحى الذى قد كان مما يسرنى ... كحكم مضى فى المزمنات الغوابر ... فياليتنى لم أعن فى الملك ساعة ... ولم أسمع فى لذات عيش نواضر ... وكنت كذى طمرين عاش ببلغة ... فلم يك حتى زار ضيق المقابر ... .

وقال محمد بن سعد أنبأنا على بن محمد عن محمد بن الحكم عمن حدثه أن معاوية لما احتضر أوصى بنصف ماله أن يرد إلى بيت المال كأنه أراد لأن يطيب له لأن عمر بن الخطاب قاسم عماله وذكروا أنه فى آخر عمره اشتد به البرد فكان إذا لبس أو تغطى بشىء ثقيل يغمه فاتخذ له